حول مقـــال . . .

للدكتور سيد نوفل

كتبت مقالاً في مجلة (الثقافة) عن الشوامخ سلكت فيه طريق الناقد المعنى بتبيان الحقائق ، وعرض المآخذ ، في أسلوب علمي يورد الحجة ، وينأى عن التجريح

أوردت ملاحظاتي على أبواب الكتاب ، وبينت ما يشيع فيه من الاضطراب والاستطراد ، وما يرد من أقوال عامة ، يقع فيها أكثر الذين يأخذون العلم عن الصحف وحدها ، تتناقض حيناً ، ولا تثبت للبحث دائماً

وانتهيت إلى « أن هذه الصفحات المائة تتحدث عن الأدب العربي من امرئ القيس إلى مطران ، وأن المؤلف كان حريصاً على إيراد كل علمه فيها ، فران عليها الاضطراب والاستطراد ، وأنها لا تعدو الإيراد المقتضب والنظرات العجلى »

ثم لم أغمط المؤلف حقه فقلت : « لكنها في الحق من قبيل التعبير القريب الهين عن إعجاب قارئ بشاعر اطلع على بعض شعره ، وطائفة من أقوال الناس فيه . ومن هنا فهي حقيقة بالجد من مؤلف يعتبر نفسه مؤرخاً سياسياً »

لكن الدكتور المؤرخ ، هاج وماج على طريقته ، ونقم على حظه العاثر ، وتبين نفسه في موضعها القلق من هذا العالم الظالم الماقي ، وبلغ التشاؤم منه مبلغه ، فضاق بالدنيا وبكل ما فيها من مان ومن فيها من ناس . . .

ومن حسن الحظ أن عقل الإنسان ، أو بعض بني الإنسان ، يجد لصاحبه مخارج من المآزق دائماً ، فهدى الدكتور عقله الكبير إلى أن له أسوة ، ويا لها من أسوة ! فيا أصاب شوقي ، وما أصاب البحتري وفكتور هوجو من قبله . . . قد تعرضوا لهجمات النقاد وقد صبروا ، وما أجدره أن يصبر ، وألا يحمل نفسه ولا أهله مكروهاً . ولهذا اطمأن واستراح

هذه خلاصة دقيقة لمقال الدكتور الذي صاغ مادته ، وأعتذر للقراء من إيراد بعض ألفاظه ، من (البقر) و (الحمير) و (النطح) و (الدجل) و (الجهالة) و (الشذوذ) و (الفوضى) ، وما إليها من مسارح ندع الدكتور الأديب المؤرخ يجول فيها ويصول ، ونمر باللغو كراما

وأبرئ نفسي من مناقشته الحساب في هذا ، فنحن لم نتعلم هذا اللون من القول ، ولم نصطنعه فيما مارسناه من نقد سنين طويلة . وأختم حديثي بنقد الكلمة التي اعتبرها المؤلف بيت القصيد في كتابه ، وأوردها حكماً بيني وبينه :

لقد جعل أولها قوله : « وليس لأحد من المتقدمين والمتأخرين تحليقاته في أفق الطبيعة الواسع »

سبحانك اللهم وبحمدك ! هذا دليل لنا يورده المؤلف ذاته ، ومصداق لما أخذناه عليه من الأحكام العامة القاطعة التي لا يستطيع أحد أن يحمل تبعة الدفاع عنها ، ولا يثبت أكثرها في العلم بله الأدب

هل أتاه حديث الشعر الذي سبق امرأ القيس والشعر الذي عاصره في الطبيعة ؟!

وهل علم المحاولات التي أعقبته ، وحديث النهضات المتوامية في الشام والمشرق والأندلس ومصر بعده بقرون ؟!

وهل درس حركة « الرومنتسزم الغربية » وسيادة شعر الطبيعة فيها ، وقابل بين الخطوط الكبيرة لهذا الشعر الغربي ، والخطوط الكبيرة لشعر امرىء القيس ، ثم انتهى إلى ما قرر ؟!

إن هذا اللون من الأحكام العامة منكر في باب البحث العلمي

ثم يقول : « وله في لمعان البرق واختلاجه في السماء آيات لا هي من الوصف الحسي ، ولا هي من الوصف الخيالي ، وإنما هي تصوير فقط »

ما معنى هذا ؟ لقد طلبت المعونة من الله والناس على حل ألغاز هذه العبارة ، فلم يجب دعائي ، ثم نظرت فتبينت الإحالة على أنها : الحسي يقابله المعنوي لا الخيالي ، فهذا يقابله الحقيقي أو الواقعي . والوصف الحسي تصوير والوصف المعنوي تصوير ، وإذاً فلا تقوم هذه المقابلة العجيبة بين الوصفين وبين التصوير ، وما نعلم أن تصوير الشيء يخرج عن أن يكون وصفاً حسياً أو معنوياً له !

ودع عنك الألفاظ البراقة التي استعملها والتي لا تحمل في